عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

— ١ —

جبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي
في جامعة بيروت الاميركية

دنا موسم الحج عام ٦٣ للهجرة وكان موسماً حافلاً ، فقد كانت خلافة عمر بن الخطاب وكان العرب قد اخضعوا الفرس والروم وغلبوهم على ممتلكاتهم في العراق وفارس وفي الشام ومصر . وكان قد تحدر الى الحجاز سيل كبير من سبي هذه الاقطار فرّق في أهله وأخذ يقوم لهم في مختلف الاعمال وشرعت وفود الحجاج تؤم بيت الله الحرام قادمة من بلدانها المختلفة يتقدمهم عمال عمر عليها . وكان من سنته فيما يروون ان يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة فيحاسبهم ويناقشهم في سياستهم ويصيخ لرعاياهم مجالاً لشكاياتهم

وانسلخت ايام الحج بهدوء وسلام فسفر الناس الى اوطانهم وغادروا مكة الا من آثر البقاء فيها للتبرك بمشاهدها او العيش في حماها ، وعاد عمر الى المدينة مقر خلافته مع من يمم من عماله واتباعه وغيرهم من ذوي الحاجات وشهر ذي الحجة لم ينسلخ بعد

وكانت ليلة السادس والعشرين من الشهر نفسه . القمر في اواخره ولم يبق له الا ايام اربعة حتى يولد من جديد وقد وافقت ليلة الرابع من تشرين الثاني فكانت ليلة من ليالي قلب الخريف الثقيلة المظلمة ، وقد رقدت يثرب مدينة النبي في هدوء ذلك الظلام واجمة ساكنة غير عالمة بما خبأه لها من الامر صبيح ذلك الليل

هو ذا الفجر ينتفض فينفض طيب انفاسه ما حول المدينة من ربى واودية ثم هو ذا هو يتحرك فيبرز أُسُد ويظهر العقيق وتدب الحياة في ساحات طيبة فينتفض المصلي والبلاط والبقيع ، وقد نهض الخليفة عمر باكراً الى الصلاة كعادته وأخذ الناس يتوافدون متزاحمين الى مسجد النبي فوكل بالصفوف رجالاً حتى اذا استوت تقدم هو فكبر

ويدخل في هؤلاء الناس رجل فارسي ، مولى للمغيرة بن شعبة ، لعله إياس تلك الليلة ، او لعله كان يرقب مثل تلك الليلة المظلمة لينفذ في فجرها جريمته النكراء ، فاستوى في الصف الاول ، سلفع الرأس ، متنكراً ، وقد اتخذ خنجراً طويلاً له رأسان مقبضه في وسطه ، ويدور الاثر يدير بن صفاه والخنجر بيده ، حتى يصل الى الخليفة عمر ، فيطعنه ، فيقع عمر وينادي وهو يطلع الموت بان عوف ان يتقدم الناس بالصلاة

مات الفاروق ودفن اثباً في المدينة فاستقلت الى حزن عميق ، وانها لفي حزنها وصوت النعي يمتثل شيخ قريش يتردد في كل بيت من بيوتها لينقله الركبان الى سائر انحاء الجزيرة وانحاء العربي ، اذا بصوت البشير في بيت صحابي اسمه عبد الله ابن ابي ربيعة يؤذن بولادة صبي له . قالوا فسمي الصبي باسم الخليفة المقتول وكنّى كنيته . وذكر هذا الاتفاق لبعضهم فيما بعد فقال : « أي حق رُفع وأي باطل وُضع »

واذا نسبت هذا النبي الى قبيلة فلعرق كريم هو من قريش وما أدراك ما قريش . قريش فخر العرب ، واذا نسبته الى عشيرة فالنسب شريف ، مخزوم ريحانة قريش ، بل هو من أشرف فروع مخزوم — بني المغيرة — واليهم كان يجب ان ينتسب

بي فانظري أتاه هل تعرفينهُ أهذا المغيريُّ الذي كان يذكرُ

وعز المغيرة في قريش بلغا فكان سيدها وأنجب أولاداً نبغ منهم ثلاثة : هشام والوليد وأبو ربيعة . أما هشام فقد عز كأبيه حتى لقب برب مكة وضرب بباسه المثل وتغنى بمجده الشعراء حتى اذا مات أخذت قريش تؤرخ بوفاته وفيه قيل :

وأصبح بطن مكة مقشعرًّا كأن الأرض ليس بها هشامُ

وأما الوليد فقد ساد حتى لقب بالوحيد وزعموا انهُ أمّر وهو صغير على الأكابر من رجال قريش وحكم في عكاظ وأدرك محمداً نبيًّا فأنكر عليه رسالته وقال : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها فأنزل فيه : « وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وأنزل فيه مرة اخرى : « ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت لهُ مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت لهُ تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلاّ انهُ كان لآياتنا عنيداً » . وأما ابو ربيعة فكان فارس بني المغيرة قاتل يوم عكاظ برجحين فيما يزعمون فسمي ذا الرجحين وقد قال في هؤلاء الثلاثة الشاعر متغنياً بمجدهم :

وبلّغ ان بلغت بنا هشاما وذا الرجحين بلّغ والوليدا
أولئك ان يكن في الناس جودٌ فان لديهم حبّاً وجودا
هم خير المعاشر من قريش وأوراها اذا قدحوا زنودا

وخلف هشامٌ أبا جهل فكان من اشد خصوم النبي هو وابنه عكرمة . فلما وفد الأخير على النبي بعد فتح مكة داخلاً في الاسلام استبشر محمد بقدومه ورحب فيما قال الطبري قائماً على رجليه فرحاً بعكرمة وقال : مرحباً بالراكب المهاجر . وقال ابن ابي الحديد : لا لم يسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله لرجل داخل عليه من الناس شريف ولا مشروف الا عكرمة وهو بعد مشرك ولم يسلم »

وكان من ابناء الوليد عمارة وخالد ، والاخير معروفٌ في جاهليته مشهورٌ في اسلامه. وكان من ابناء ابي ربيعة عبد الله والد هذا الصبي الذي تركناه يتقلب في مهده على فراش وثير في بيت عز وشرف ومنعة وجاه وجود

وبلغ عبدالله من الغنى في جاهليته بحيث زعم الرواة انهُ كان يكسو الكعبة من ماله سنة وتكسوها قريش كلها سنة اخرى

وكان هؤلاء المخزوميين قد عرفهم ان قوم النبي من غير مخزوم فناهضهُ الكثيرون واستمر عبد الله في خصومته للنبي حتى فتح مكة فاسلم منهُ فاستأنف النبي ليلة حنين صلاً اعاده اليه بعد رجوعه ثم عينهُ على الجند وخالفهم في اليمن وبقي عاملاً عليها خلافة ابي بكر وعمر . وقد كان وافداً مع الحج عام قتل عمر وكان من الذين استشيروا — غير الستة — في امر الذي يخلف عمر، وبقي فيها يظهر عاملاً لعثمان طول خلافته ، حتى أذا حوصر عثمان يوم الدار وفد عبد الله من اليمن لنصرته ، فسقط من راحلته ومات وصيفنا عمر في يوم الثانية عشرة من عمره. وهذا فلا نرى في كل المصادر التي بين ايدينا خبراً عن اتصال عمر بوالده. ويظهر ان اخا عمر الحارث وكل في امر عمر بعد موت ابيهما

اما ام عمر واسمها محمد فقد كانت بنية من خثعم زعموا انها سبية ولعلهم أخطأوا في هذا، وهناك ما يدعو الى ان يظن الرواة بن ظن هذا الاسم . ولقد اتصل عمر بأخواله في حج وزارهم اكثر من مرة ويخيل اليّ ان والد عمر قد تزوج من نجد اثناء ولايته على الجند ومهما يكن من الامر فقد زعم الرواة ان الغزل ان عمر من اليمن من الحية أمه حيث يقال لا تغزل بعامي وبدل حجازي »

وكان لعمر اخوة احدهم الحارث الذي ذكرنا . وكان من ام حبشية وقد ساهم في سياسة ذلك العصر فكان عاملاً لعبد الله بن الزبير على العراق او بعض مدنه ليضم شواذ . وقد قال فيه عبد الملك بن مروان خصمه : ان أمّ ولدته لمنجبة . وكان لعمر اخ آخر اسمهُ عبد الرحمن زوّج من بنت ابي بكر ام كلثوم بعد موت زوجها طلحة وهي اخت عائشة ام المؤمنين واخت أسماء ذات النطاقين والدة عبد الله بن الزبير وهذا يفسر لنا اتصال عمر بآل الزبير ، وبعائشة بنت طلحة ابنة امرأة اخيه

ولقد زوّج عمر من غير واحدة وولد اولاداً ذكرت الاخبار منهم اثنين صبياً وبنتاً. اما الصبي فهو جوان وقد نشأ رجلاً صاخباً ضرب بصدته المثل. واما البنت فقد زوجت من محمد ابن مصعب بن الزبير

﴿ نشأته ﴾ كم يكابد الباحث في تاريخ رجال القرون الاولى من العناء اذا حاول درس نشأة هؤلاء الناس وحياتهم ايام صباهم. ويظهر ان القدماء قلما كانوا يعنون في الالتفات الى هذه الامور فلم يكن من همهم شأن الصبي حتى يتبع ويشهر بفن او حرب او شعر او حتى يلي او يملك وقلما عنوا ايضاً كما يعنى مؤرخونا اليوم بتدوين سير الرجال في كتب خاصة. فذكر اخبار رجال التاريخ العربي قد انتثرت بين طيات شتى الكتب. فترى اخباراً عن شعراء في كتب الحيوان وأخرى عن رجال الحرب والسياسة في كتب الأدب. غير ان عمر نال من عناية هؤلاء القدماء شيئاً ليس باليسير. فقد كتبت عنهُ فيما يظهر كتب خاصة فصرت على اخباره. قال ابن النديم: إن عمر كان من الذين عشقوا وألف في اخبارهم وروى ان لابن بسام الشاعر من الكتب كتاب اخبار عمر بن ابي ربيعة. وقال: ولم ار في هذا الباب منهُ. وروى ايضاً ان للزبير بن بكار كتاباً في اخبار ابن ابي ربيعة، وذكر ابن خلكان ايضاً ان لابن بسام المذكور في التصانيف اخبار عمر ابن أبي ربيعة. وزعم انهُ لم يستقص احد في بابه ابلغ منهُ. ولكن مع الاسف قد ضاعت كل هذه الكتب. ولولا ان ابا الفرج الاصبهاني قد التفت الى عمر فأفرد له في « أغانيه » قدراً لم يفرده لشاعر آخر او ملك او امير لكانت حياة ابن ابي ربيعة وبعض اخباره في عالم الخفاء، ويجب ان لا ننسى ان عمر قد خلف لنا ديواناً من الشعر غير ان هذا الديوان على كبره غير تام. ويظهر لي ان اكثر شعر عمر قد ضاع. ولهذا كله فانا لا نزال نجهل اخبار نشأة عمر الاولى فكيف قضى صباه؟ واين؟ ومن أين اتاه الشعر؟ وكيف نهج هذا النهج؟ كلها امور يصعب درسها

وارى ان كثيراً من نواحي حياته في طفولته وصباه سيظل مبهماً ما لم يتيض الله لاحد العثور على بعض هذه الكتب التي ذكرنا — ان كان فيها ما ينفع غاية — او على الاقل على ما ضاع من شعره.

﴿ أين نشأ ﴾ والراجح انهُ نشأ في المدينة عاصمة الحجاز زمنذاك ومقر الخلافة، دون ان يفرته التردد إلى مكة موطن آبائه. وكانت المدينة آنذاك في عصرها الذهبي تنعم في لين العيش، مالٌ عظيم وغنى واثر وشباب انقطعوا عن السياسة وانصرفوا الى اللهو وجوار بالاترف وزّعن في بيوت سراة القوم فنشرن فيها كثيراً من حضارة أقوامهم ذوي المدنية من فرس وروم مع ما يتبع هذه الحضارة من ضروب اللهو وانواع العبث. ففشا الغناء وعقدت له حفلات عامة

وخاصة . وكان عمر من أسبق المترددين اليها . ويُسَّر اختلاط الشبان بالجواري وغيرهن فتنا اسبث . وكان في المدينة واد بهيج هو العقيق متزه أهل النور في ذلك العصر ، فكانوا اذا سال يهرعون اليه رجالاً ونساء ويقعدون حول ضفافه حلقات الانس والطرب ويتمس بعضهم المغنين فيسمعونهم من عذب اصواتهم ويتزوى آخرون تحت نخيله يلهون ويلعبون

***

تلك نعمة تفردت بها المدينة بين سائر مدن الحجاز ولم تكن لتحظى بها الاّ اذا سال العقيق ولهذا لم يفت هؤلاء الناس الذين كاد يخلو فطرهم من الماء والخضرة أن ينعموا بهذا الحظ النادر ، فكان العقيق يجذب اليهِ الجماهير فينتشرون على ارضه يتمتعون بهذا الجمال الذي يحيط بهم كلٌ في فلكه توحد بينهم البهجة والسرور والدعة وهم في صعيد واحد لا تسمع منهُ سوى أصوات المغنين وأنات المحبين ومجرى الماشقين فيبدو العقيق في روعته لبلك كقطعة من الجنان خلت من الآلام ونامت على أطيب الانغام وهنئت بأجلى الاحلام . وتفتش عن عمر فتراه في كل مكان ، فهو تارة في حلقة غناء يستمع الى بعض المغنين والمغنيات وطوراً في مجلس أنس يحدث الغانيات الفاتنات وحيناً آخر في موكب صديقه عبد الله بن جعفر يختلط بين تلك الحلقات

وتسمع مع خرير المياه في ذلك الوادي وهمسات النخيل وهبوب النسيم أحاديث وأدباً وظرفاً تنبعث عن كل العقيق . وتبحث عن عمر فتراه واسطة عقد هذه المحادثات وظريف هذه المجتمعات وشاعر هذه الحلقات

ويدنو موسم الصيف وترتحل عائلات السراة من المدينة ومكة الى الطائف فيرتحل عمر الى الطائف يصيف مع المصيفات . إنهُ امرؤ قد وكل بالجمال فهو يتبعهُ أنى وجده . ويدنو موسم الحج فترى عمر أسبق الناس اليهِ وهو يرى الحج — على تعبير الدكتور طه حسين — مرضاً اسلامياً للجمال وهو ذا هو يتقدم فيتصدر في ذي القعدة ويتجمل ويلبس تلك الحلل والوشي ويركب النجائب الخضرة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لك ويلقي البرانيات فيها بينهُ وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدينات والشاميات الى الكديد . ويقسم قلب عمر بين البيضات والشاميات والعراقيات فلا يترك هذه حتى يتعلق باخرى ولا يعود من تشييع تلك حتى يودع اخرى يتحدث مع هذه ويتودد الى تلك ويتحسر لفراق هاتيك ويمر الوقت سراعاً فيتلهف عمر على كل لحظة تفوت لم يتمتع بها بهذا الجمال ولم يهنأ بها بهذا الحب فيصرخ من اعماق قلبه :

لبت ذا الدهرَ كان حتماً علينا كلُّ يومين حجةً واعتمارا

ثم يعود الى نفسه وقد غمرتها تلك الروعة ، واذا بها تذوب شعراً جيداً ينثره عمر وراء

الغايات فينتشر في مواكبهن وركباتهن ويصل قبلهن الى ديارهن . وهو في بعض هذا الشعر يحاول ان يتعزى ويتأسى فلا يرى ما يعبر به عن عزائه ويرد اللوم على عاذله سوى لقاء الحبيب في الموسم القادم :

فقلت له ما من عزاء ولا أسى يسل فؤادي عن هواها فأقصر
وما من لقاء يرتجى بعد هذه لنا ولهم دون التفاف الحجر
فجاد دواء للذي بي من الجوى والاَّ فدعني من ثلاثك واعذر

***

﴿ هيئته ﴾ : ليس من شك في أن عمر كان جميلاً . ولعل هذا الجمال كان من العوامل التي دفعت النساء الى حبه فجعلته معجباً بنفسه حتى زعم البغدادي ان عمر كان يتغزل بنفسه لحسنه وجماله . ولكن هذا الحسن لم يوصف لنا كما وصف هو حسن اللواتي تغزل بهن فقد كان يكتفي بالافتخار به . ويذكر أن النساء كن يطرين جماله ويلهجن به ويتشوقن الى صاحبه حتى انه بعضهن — فيما زعم — بالقمر

وكان عمر — فيما يظهر — طويلاً رأته احدى أميرات بني أمية في نفر من قومه وهم جلوس يتحدثون وذكرت أنه فرعهم طولاً وجوهرهم جمالاً

وكان أسمر اللون شاحبه ناحل الجسم في اكثر الاحيان ولعل مصدر هذا هو السهر والسهر والتعرض لبرد الليل وحر الهاجرة في سراه وتهجيره . يلتفت الى هندامه وهيئته فيلبس أبهى الحلل ويتزين بأحسن الوشي ويتطيب بأعطر الطيب حتى قيل فيه انه كان من أعطر الناس وأحسنهم هيئة ، وربما بلغ به حبه للزينة أن خضب نعاله التي يركبها بالحناء وكساها القطوع والديباج . وكان له جواد وضع في عنقه طوق ذهب له غلام خاص يسوسه

وكانت له شيبة خاصة فضحته ذات يوم وقد شكر نعرفته ثناته الثريا فيها . وكان في وجهه أو بالاحرى في فمه علامة فارقة لا ندري تماماً الوقت الذي ظهرت فيه وهي اسوداد اللثتين الصقيبيتين ويزعم بعضهم أن الثريا إحدى حبياته ضربته في مداعبة بظاهر كفها وكانت النساء تتحكم في أعاصيهن العشر فاصابت الخواتم ثنيته وكادت أن تقلعها وخاف أن تسقطها فقدم البصرة في العراق فعولجها له وثبتها وسودها . وكانا في فمه من أعمق الذكريات

﴿ بعض نواحي خلقه ﴾ : لقد اتفق اكثر القدماء والمحدثين ان عمر شاعر غلكه الدل والتيه . ولعل مصدر ذلك هو الاصل الكريم الذي تحدر منه والجمال الذي منحه والشعر الذي أدته . أو لعل النساء كما يزعم البعض هن اللواتي افتن به وتسابقن الى مودته

وتهالكن عليه فاضطره هذا الى شيء من الخل والغرور. ولقد حدث عن نفسه فقال: لقد كنت وانا شاب أعشق ولا أعشق. وقال من شعر يصف فيه تخلصاً لفتياته ويذكر انه موضوع حديثهن أوله:

« هيج القلب مغان وصير »

لهفي قالت لاتراب لها تقف فيهن انس وخفر
قد خلونا فتمنين بنا اذ خلونا اليوم بدي ما نسر
فعرفن الشوق في مقلتها وحباب الشوق يبدي النظر
قلن يسترضيها منيتنا لو اتانا اليوم في سر عمر
بينا يذكرني أبصرني دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

رُوي أن ابن ابي عتيق لما سمع أبيات عمر هذه قال: ات لم تنسب بها انما انسبت بنفسك انما كان ينبغي ان تقول قلت لها فقالت لي فوضعت خدي فوطئت عليه.

وقد تصدت له فتاة جريئة فقالت له: لا اكون من نسائك اللاتي تزعم ان حبك تيمهن. وله يصف حب صاحبة له:

وانها حلفت بالله جاهدة وما اهل له الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شيء تسر به وأعجب العين الا نوفه عمر

وله يدل بجماله ويذكر صبابة حبيبته، وخوفها عليه من العين:

اخشى عليه العين ان بصرت به وترى صبابتنا به فتبابه

بل قد غلا في دله وتيهه وتشوفه حتى زعم ان بعض الفتيات كن يكابدن عناء السفر ليلاقينه في الحج

لومت بعينيها من الهودج لولاك هذا العام لم احجج
انت الى مكة اخرجتني ولو تركت الحج لم اخرج

ارأيت الى اي حد كان تيهه ودله وغروره. أرأيت كيف انه يرى ان النساء كن يشققن فهو مناهن وحديثهن وغايتهن في الحج: ماذا اقول: ان له بيتاً من الشعر غلا فيه حتى جعل نفسه موضع الانبياء عند حبيبته:

واذا ما عثرت في مرطها نهضت باسمي وقالت يا عمر

ونعل اظهر ميزة في خلقه بعد تيهه وزهوه الحاحه والحافه في كثير من الامور التي كان يحاولها او يسعى لنيلها فهو يجدّ وراء غرضه حتى نناله ويلح في طلب حاجته حتى يدركها . ولقد يبدو لاول وهلة ان هذه الظاهرة من خلقه لا تتفق مع تيهه وزهوه والواقع انها اقرب ما تكون الى هذا الدليل. بل لعلها أثر من آثاره، فهو اذ طلب حبيباً فامتنع عليه ايت عليه نفسه الثائه ان يخذل في سعيه فلا يزال وراء حبيبته ملحفاً ملحًّا حتى يرقموها في شراك حبه ، وهناك يعاوده تيهه فيفخر في أنه أخضع هذه المتمنعة لسلطان حبه وقد جاء دوره ليذل وتيه

***

ويجدر ان نرى قصة من قصص حبه خلت من هذا الالحاح وراء التي أحبها . ذلك كان شأنه مع امرأة ابي الاسود الدؤلي وغيرها من النساء اللواتي كان يصادفهن في الحج . وقد رأى مرة كلثم بنت سعد المخزومية فهواها وراسلها فلم تجبه فأخذ يرسل اليها ويلح عليها في الحب فتنكرت رسله واخذت تضربهم وتأخذ عليهم العهود ألاّ يعودوا وظل يبعث الرسل وظلت تكيد لهم حتى تخاموها ولم يزل عمر ولم يتحامّ ولم يرجع عن طلبه الى ان بلغ أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن اليها وكساها وآنسها وعرفها خبره وقال إن اوصلت لي رقعة الى كلثم فغرأتها فأنت حرة ولك سبعمائة ما بقيت . ووقفت هذه الجارية في رسالتها وكان جواب كلثم « ما زال عمر حتى ظفر ببغيته » . وكان يتعرض مواكب الحجاج ليسأل عن هذه وتلك وما يزال يلح ويحرص على التقرب منها حتى تعقد بينهُ وبينها روابط الحب

وهناك ناحية أخرى في ميوله غلبت صبغتها في اخبار حبه وشعره وهي ميله للتحدث مع السيدات ولطفه وحسن عشره . ولا أظن الادب العربي عرف صديقاً للمرأة خيراً لها اعظم من عمر . وكانت النساء جد معجبات بظرفه وحديثه يتشوقن اليه ويتمنين لقياه ويذكرن حلو سمره وأنس مجلسه

ومع ان عمر عرف عند البعض بالشاعر الفاسق فاني ارى في كثير من قصص حبه عفة لم يخالطها إثم . وقد اقتصرت وقائعه مع الكثيرات على مجلس أنس وطيب سمر ولذة حديث وهو القائل :

فاجتنينا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمرك جانٍ